# ولادة بابل الحديثة

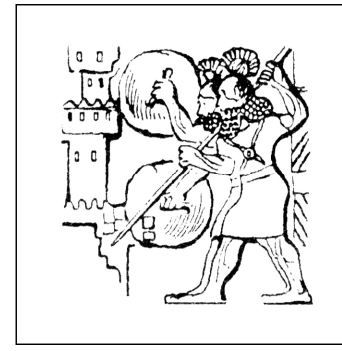

إيساجيله، قصر الألهة ومعبدها
بابل المدينة المميزة، سورها إيمغور هليل
ومتراسها نيميت هليل.
أمرت ببنائه من جديد من أساسه حتى
أسنانه وجعلتها أكبر وأعلى وأجمل مما قبل.

من كتابة آسرحدون
ملك آشور

في شتاء عام «٦٨٩-٦٨٨ ق.م» هز نبأ جميع البلدان والشعوب من سواحل البحر الأبيض المتوسط حتى وادي الهند، ومن براري السودان ورمال الصحارى حتى السهوب الساحلية للبحر الأسود والقوقاز الباسق. بابل محور الكون زالت من الوجود.

شاهد تاريخ الشرق القديم خلال عدة آلاف من السنين عدد لا يحصى من المرات كيف نشأت وازدهرت وماتت ولم يبق لها أثر ليس فقط مدن وإنما بلدان وشعوب بأكملها.

مرت قرون وتبدل ملوك وفاتحون إلا أنه ما من أحد منهم تجرأ ورفع يداً على بابل المقدسة ومعبدها إيساجيله.

وهكذا لم تعد بابل موجودة فقد مُسِحَت عن وجه الأرض، ماذا حدث؟ أي عاصفة رهيبة انقضت على حدائق النعيم في وادي الفرات والدجلة الأكثر خصباً في العالم؟

وللإجابة على هذه الأسئلة يجب أن نعرّف القارئ ولو بشكل مختصر على تاريخ آسيا الغربية «الدنيا» خلال الخمسين عاماً التي سبقت موت بابل.

يبلغ عمر الحضارة في الشرق الأدنى حتى ذلك الوقت ٢٥٠٠ عام وخلال هذه المدة شكل سكان مصر وبلاد الهلال الخصيب ثروة هائلة وثقافة أكثر تقدماً وازدهاراً في العالم. ولكنها لم تلق السعادة والطمأنينة. فجميع خيرات الحضارة ضمتها ثروة القلة أما حصة العامل فكانت العبودية والقنوط والأشغال الشاقة والفقر المدقع. وقد فجر عدم المساواة في الملكية والصراعات الاجتماعية الحادة قوى الشعوب



obeikandl.com

المتحضرة. فقبيل منتصف القرن الثامن قبل الميلاد كانت جميع دول الشرق الأدنى العظيمة في حالة انحطاط عميق، وزالت المدن الدول في مصر الفراعنة والأهرامات ومجموعة الهياكل الضخمة الكرنك والأقصر بالقرب من طيبة وحدها التي تعيد للذاكرة عظمتها الغابرة، وكانت أرض مصر مجزأة إلى إمارات متعددة حكم فيها الأمراء الليبيون الذين اعتمدوا فيها على المحاربين الليبيين واستغلوا سويةً مع الكهنة المصريين الشعب المستبعد، وفي عام ٧١٦ ق.م احتل النوبيون مصر.

وعانت الدول الصغيرة سورية وفينيقيا وفلسطين أوقاتاً عصيبة فقد حاربوا بعضهم بعضاً باستمرار وفي داخل كل منهم جرت صراعات حامية بين الفقراء والأغنياء والعبيد والأسياد.

وتمثلهم بذلك اليهودية واحدة من تلك الدول في ذلك الوقت حيث يقول عنها النبي أشعيا: «كل الرأس مريضٌ وكل القلب سقيمٌ. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وإحباط وضربة طرية لم تُعصَر ولم تعصب ولم تلين بالزيت. بلادكم خربة. مدنكم محروقة بالنار. أرضكم يأكلها الغرباء قدامكم وهي خربة كانقلاب الغرباء»[1].

وكانت آشور الجبارة التي على مدى قرن بكامله شكلت تهديداً لآسيا الغربية في حالة انحطاط عند منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وكانت قوى الجيش الآشوري منهكة نتيجة للإفلاس الجماعي للمواطنين من أصحاب الأرض الذين على كواهلهم وقع عبء الخدمة العسكرية، بينما الأشراف الآشوريون ملكوا ثروات عظيمة منهوبة من الدول المجاورة والقوة العسكرية للبلاد تقهقرت.

وفقدت آشور سيادتها على سورية، ومن الشمال ضايقها ملوك أورارتو. وفي عام ٧٤٥ ق.م وقع في آشور انقلاب في القصر واستولى الملك تغلات بلاسر على العرش معتمداً على الطبقة الديمقراطية في المجتمع الآشوري وأجرى جملة من الإصلاحات المهمة التي أثرت تأثيراً هائلاً على أحداث الشرق الأدنى بما فيها بابل أيضاً.

وأفسح تغلات بلاسر الثالث مجالاً للفقراء الآشوريين للانخراط بالجيش الذين كانوا مستبعدين عن الخدمة العسكرية بسبب عدم توفر الكفاءة المادية. واعتباراً من هذا صار العسكري يسلح ويعال على حساب الدولة، وبفضل هذا نما الدور السياسي للطبقات الديمقراطية الذي يمثله قيام الجيش ومنذ ذلك الوقت أصبح الجيش الآشوري مكوناً من الميليشيا الأهلية وتحول إلى قوات محترفة دائمة.

والجيش الآشوري الجديد لم يُعرَف له مثيل بالقوة الحربية على مدى قرن كامل.

وبالاعتماد على هذه القوة أخضع تغلات بلاسر الثالث «٧٤٥-٧٢٧ ق.م» وأحفاده شلمناصر الخامس «٧٢٧-٧٢٢ ق.م» وسرجون الثاني «٧٢٢-٧٠٥ ق.م»

في فترة قصيرة سوريا وفينيقيا وفلسطين والأقاليم الشرقية من آسيا الوسطى والمناطق الغربية من إيران وبابل أيضاً.

وكان لتبدل العلاقة مع الدول المغلوبة أهمية لا يستهان بها فكان الآشوريون كسائر الغزاة يكتفون بالنهب وفرض الجزية على الشعوب المغلوبة وسحق العصاة. ولكن كقاعدة عامة لم يحرموهم من الإدارة الذاتية.

وبدأ تغلات بلاسر الثالث أولاً بتحويل الدول المستولى عليها إلى أقاليم ضمن قوام الإمبراطورية الآشورية. والآن بسط الآشوريون إدارتهم على الشعوب الخاضعة لهم حيث حطموا مرة وإلى الأبد قدرتهم على المقاومة فقد لجؤوا إلى ما يسمى سياسة الاستئصال أو الاقتلاع «ناساهو Hacoxy»[أ].

فمثلاً في عام ٧٢٢ ق.م استولى الملك الآشوري سرجون الثاني على السامرة عاصمة إسرائيل وساق الشعب الإسرائيلي إلى الأسر وأسكنه في مناطق مختلفة في شمال بلاد ما بين النهرين وعند الحدود مع ميديا، وبدلاً من الإسرائيليين أسكن في السامرة الأسرى البابليين والسوريين من حماه، فالشعب المغلوب انسلخ عن أرض وطنه من الجذور.

وكما الأسرى الذين سيقوا كذلك الذين جيء بهم إلى مكانهم أصبحوا في محيط غريب مقطوعين عن أوطانهم الأصلية ومحرومين من إمكانية مقاومة المنتصرين، ولكي يسلّموا بالوضع الجديد كانوا مجبرين طوعاً أو كرهاً على التمسك بمستعبديهم الآشوريين. وهكذا أمن الآشوريون سيادتهم على البلاد المحتلة.

إلا أن سياسة الاستئصال كان لها العاقبة المهمة التي لم يتوقعها الغزاة، فالآشوريون على مدى مئة عام خالطوا ومازجوا شعوب آسيا الدنيا «الغربية» المغلوبة ماسحين بذلك الفوارق الاثنية «السلالية» وحولوا جميع سكان إمبراطوريتهم إلى كتلة متقاربة مشدودة بطوق فولاذي إلى النير الآشوري.

والآشوريون أنفسهم لم يختلفوا أبداً عن الغالبية وذابوا ضمن المغلوبين الذين تكلموا بشكل أساسي باللهجات الآرامية وفي النتيجة حصلت عملية تحول سكان آسيا الدنيا إلى الآرامية[2].

ولم يقل الموقف الذي ساد في بابل المجاورة تعقيداً عن ذلك، وكانت البلاد في اضطراب وأعيان بابل وبارسيب وسيبار ونيبور وأوروك وأور ينعمون بالرفاهية، ورزح الشعب العامل تحت تأثير نير الفقر المدقع، وكان في أيدي الارستقراطيين ملكيات أراضٍ مترامية الأطراف وثروات معابد المدن البابلية، وكان كثير من الارستقراطيين ملاكين للأطيان الناشئة على حساب إفلاس أصحاب الأراضي الصغار والمتوسطين.

وأعفت الارستقراطية نفسها من جميع الواجبات والفروض بالنسبة للدولة وبدلاً من ذلك حازت على جميع حقوق وامتيازات المواطنة.

---

أ- باللغة الأكادية «الآشورية - البابلية» يعني الفعل «ناسوهو Hacoxy» اقتلع من الجذر «استأصل».

واستولت الارستقراطية على السيادة الاقتصادية والسياسية في المجتمع وخربت وأوصلت المواطنين البسطاء إلى حالة يرثى لها وأنزلت الملوك إلى دور الدمى المحرومين من السلطة الفعلية، وهي نفسها الارستقراطية أنهكت المملكة البابلية التي زالت فعلياً، وكانت البلاد في حالة فوضى وانقسام سياسي وحصلت بين المدن البابلية اصطدامات مستمرة والزمر الارستقراطية الخاصة خاصمت بعضها بعضاً. وكانت بابل غير محصنة تجاه جيرانها الضواري من الآشوريين والعيلاميين والقبائل الكلدانية.

فالكلدانيون شعب سامي في الأصل قدموا من العربية في القرن الحادي عشر قبل الميلاد واستولوا على جزء مهم من بابل مؤسسين عليه إمارات قبلية عديدة.

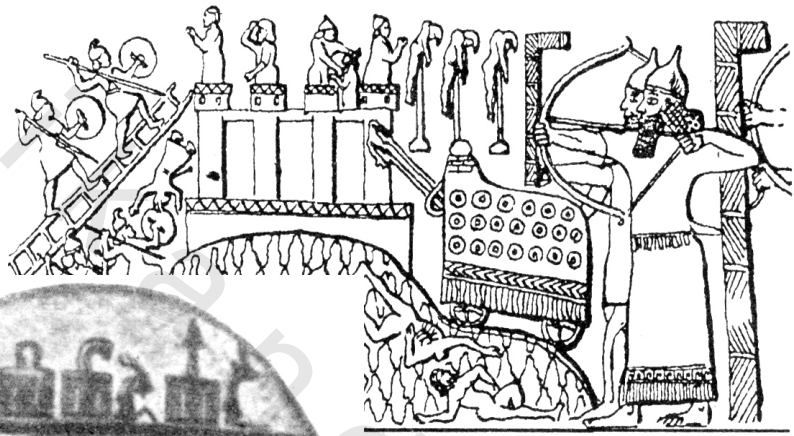

الآشوريون يقتحمون ،

وكان أعظمها بيت ياكين «بلاد البحر» وبيت دكوري وبيت آموكان وغامبول وبوكودو، وصارت بابل في محيط كلداني وتسرب السكان الكلدانيون أيضاً إلى منطقتها. واستخدمت الارستقراطية الكلدانية القوة العسكرية للكلدانيين، وخلافاً لإرادتهم شجعوهم على احتلالات متواصلة، ومع مرور الوقت أصبح الكلدانيون بسرعة بابليين وفي أكثر من مرة استحوذ أمراؤهم على بابل ومنحوا أنفسهم لقب ملوك بابل وتخلصت منهم الارستقراطية

الملك البابلي مردوك - ابلو - أدين الثاني يسلم وثيقة لمالك ارستقراطي بابلي «نقش بارز على حجر علامة حدود «كودورو»

البابلية بحيث ألبوا أميراً على آخر أو التفتوا إلى مساعدة آشور وعيلام.

وبالضبط لجأت بابل في زمن تغلات بلاسر الثالث إلى آشور لمساعدتها ضد الكلدانيين الذين استولوا على مدينتهم.

وحرر تغلات بلاسر الثالث بابل في عام ٧٢٩ ق.م باسم بولو وهو ذاته اعتلى العرش الملكي. ودخلت بابل وفقاً لحقوق الوحدة الذاتية في قوام الإمبراطورية الآشورية وبدا هذا الحدث حتمياً لكلا الدولتين.

وعند الآشوريين كانت بابل خلافاً للبلدان المحتلة الأخرى لا تعد أجنبية فقد كان البابليون والآشوريون شعبين أخوين مرتبطين بوحدة أصل جامعة بصورة لا تنفصم من أحداث تاريخية ودين وثقافة وعادات وتكلموا بلهجات قريبة من بعضها بعضاً من لغة أكادية واحدة.

وكتبوا بكتابة مسمارية واحدة، وكانت بابل عند الآشوريين مدينة مقدسة وتمتعت عندهم بهيبة عالية جداً. وصار ارتكاز وتحالف الارستقراطية البابلية أضعف من الارستقراطية الآشورية في صراعها من أجل الاحتفاظ بامتيازاتها ضد المطامح الاستبدادية للملوك الآشوريين وتلخصت هذه الامتيازات بالتحرر من الواجبات الحكومية بما فيها الخدمة العسكرية والضرائب وبحق الإدارة الذاتية. وتمتع البابليون والآشوريون معاً بمدينة بابل القديمة.

ونشأ في آشور حزبان متنافسان وكانا عبارة عن تجمعين غير واضحين متبدلي القوام إلى حد كبير تشكلا عفوياً وتجمعهما وحدة المصالح. وأطلق عليهما تسمية اصطلاحية الآشوري والبابلي.

فالحزب الآشوري ضم الطبقة الديمقراطية في المجتمع وكان الجيش عماده، ووقف مع السياسية العدوانية ودعم السلطة الملكية في سعيها إلى الديكتاتورية المستبدة.

أما الحزب البابلي فكان عبارة عن تجميع سياسي للارستقراطية الآشورية المعتمدة على بابل ولم يكن عندها شيء ضد سياسة العدوان ونهب الشعوب المقهورة ولكنها لم ترد أن تتخلى عن امتيازاتها وعن هذه الأهداف، ولهذا السبب صارعت ضد إقامة ديكتاتورية ملكية مستبدة.

وبدأ الصراع المفتوح بين هذين الحزبين في عهد الملك الآشوري شلمناصر الخامس «٧٢٧-٧٢٢ ق.م» ابن تغلات بلاسر الثالث.

وتطاول شلمناصر الحامل اسم أولولاي كملك لبابل على امتيازات الارستقراطيين فقتله المتآمرون ودفع حياته بسبب ذلك واعتلى سرجون الثاني «٧٢٢-٧٠٥ ق.م» العرش الآشوري. وفي الحال انفصلت بابل عن آشور داخله في حلف مع الكلدانيين والعيلاميين وتقلد العرش البابلي مردوك - أبلو - أدين الثاني «٧٢٢-٧١٠ و٧٠٣-٧٠٢ ق.م» وفي عام ٧١٠ ق.م طرد سرجون الثاني أمير بيت - ياكين الكلداني من بابل، واستطاعت الارستقراطية أن تستميل عطفه إلى جانبها مستعيدة بذلك وموسعة امتيازاتها.

وقام الملك الآشوري سنحاريب «٧٠٥-٦٨٠ ق.م» ابن سرجون الثاني بمحاولة جديدة لإقامة ديكتاتورية عسكرية مستبدة.

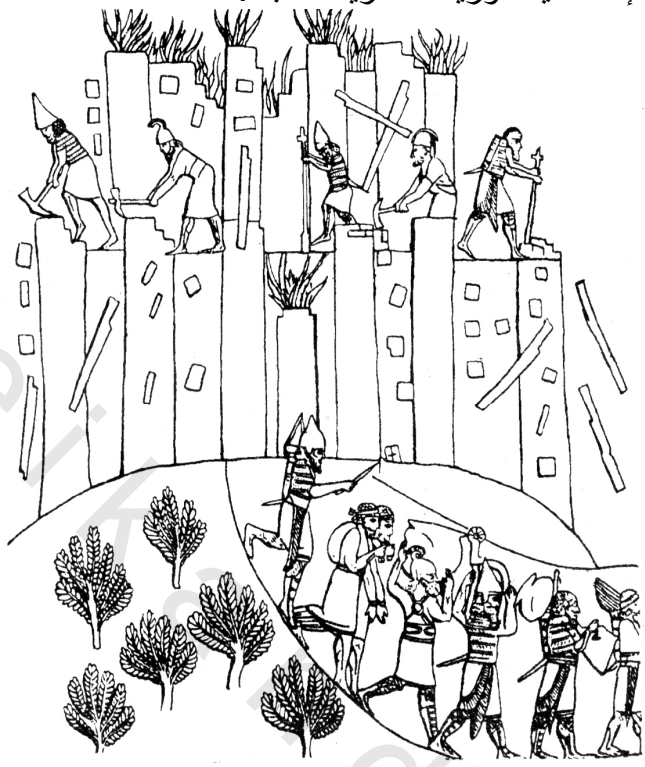

الآشوريون ينهبون ويخربون مدينة بابلية

ووصل الصراع بين الحزبين الآشوري والبابلي في عهده إلى توتره الأشد.

وغدت بابل من جديد العدو الرئيس للملك الآشوري وانتفضت من جديد في عام ٧٠٣ ق.م واستدعت مردوك - أبلو - إدين الثاني إلى عرشها. وخلال أربعة عشر عاماً من النضال سجالاً شن سنحاريب حرباً عنيفة على بابل وداعميها الكلدانيين والعيلاميين، وأخيراً في كانون الأول عام ٦٨٩ ق.م استولت القوات الآشورية على المدينة المتمردة بالاقتحام. وبحالة من الغضب الأعمى أعطى سنحاريب أمراً بتدمير بابل والبابليين.

فأحرقت المدينة وخربت وأنسد مجرى الفرات بحطام المباني وتدفقت مياه النهر بين خرائب المدينة وبقي المكان الذي قامت عليه المدينة ملعوناً ٧٠ عاماً، وأغلبية البابليين وبالدرجة الأولى الارستقراطيون قتلوا وتفرق قسم منهم مندفعاً إلى البلدان المجاورة، وسيق البقية إلى الأسر وبيعوا عبيداً، وحملوا صنم «تمثال» بعل - مردوك إله بابل الكبير كغنيمة إلى مدينة آشور عاصمة الآشوريين القديمة وزالت بابل من الوجود. هذا هو الخبر الذي اخترق كالرعد كل عالم الشرق الأدنى الذي كانت مطرقة الآشوريين مرفوعة فوقه والذي تابع باهتمام حرب بابل مع سنحاريب.

وبعد موت بابل صارت عتمة السيادة الآشورية أشد حلكة ولا تطاق، وبدا أن سنحاريب حقق أهدافه، وعند قدمي ملك آشور انبطحت جموع البلدان والشعوب المداسة وما من أحدٍ تجرأ على أن يخالف الإرادة الملكية.

ولكن «سنحاريب» اكتشف أنه موجود في فراغ وفي جو من الكراهية الضارية وفهم أنه ما من أحد يعتمد عليه وأن ديكتاتوريته لا تلزم أحداً ولم يلق التأييد من أحد. وكانت قوتان اجتماعيتان معنيتان بإقامة ديكتاتورية الملوك الآشوريين المستبدة. وهما الطبقة الديمقراطية من المواطنين الآشوريين، وطبقات أثرياء الأقاليم الآشورية. وكل من هذه وتلك رأتا في السلطة الملكية القوية واسطة لإقامة «العالم» والنظام الطبقي الذي يهمهما.

ومع سنحاريب انتهى الاحتلال والفوضى وتأمنت حدود العالم المتحضر من اعتداءات البرابرة، فالمسيرة الظافرة للجيوش الآشورية فقط حدثت في بلدان الحضارة القديمة الممزقة بتناقضات اجتماعية حادة. ففي أوساط الطبقات الحاكمة وجدت دوماً حلقات معينة جاهزة للتعاون مع الغزاة. ولكن إمكانية تعاون كهذا بقضه وقضيضه كانت متعلقة بقوى الديمقراطية الآشورية ومنوطة بقوام الجيش الآشوري وحالته المعنوية.

وأُجبرت الأقلية النسبية إلى اللجوء لتجنيد العساكر الغرباء في الجيش من المتمتعين بالقوة من سكان الأرياف والعبيد والأسرى الذين حاربوا بالأمس ضد الآشوريين طامحين لشيء واحد هو النهب والربح فقط.

ومن وجهة النظر هذه فقط استطاعت جيوش آشورية كهذه الاهتمام بمصير آشور ومشكلاتها السياسية والاجتماعية.

وفي النتيجة تحول الجيش إلى مجموعة أوباش من مختلف الألوان ليس لهم أي ارتباط مع الشعب الآشوري.

وتفككت الديمقراطية وانحلت في طغمة العسكريين التي بدورها حرمت ديكتاتورية الملوك الآشوريين من إمكانية الاعتماد على الطبقة الغنية من سكان الأقاليم.

والحقيقة أقام الآشوريون «عالماً» داخلياً عالج بوحشية المحاولات الصغيرة من المقاومة والتذمر. ولكن سلطتهم لم تجلب لسكان الأقاليم تلك الفوائد والخيرات التي يمكن قياسها مع فقدانها الاستقلال. فبعد ٧٠٠ عام كتب الإمبراطور الروماني طيباريوس إلى عمال الأقاليم الذين أصروا على زيادة الضرائب «إنه من الأفضل للرعاة أن يجزوا الشياه ولكن لا أن يسلخوا جلودها»[3].

وهكذا لم يكن الآشوريون رعاة صالحين فهم لم يجزوا الشعوب المقهورة ولكن بالحرف الواحد سلخوا جلودهم. فمثلاً ظهر في كتابات سنحاريب نفسه التي كتبها في

عام ٧٠١ ق.م حول «إقرار السكينة» في المدينة الفلسطينية عقرون[أ] خلعت البطانة «العصبة النافذة» المعادية لآشور الملك بادي وكبلوه بالسلاسل وسلموه للملك اليهودي حزقيا المتزعم الثورة المضادة للآشوريين في فلسطين.

وسحق سنحاريب في المعركة عند التقيّة[ب] الثائرين والقوات النوبية المصرية القادمة لمساعدتهم. وعلى إثر ذلك دخل الآشوريون عقرون دون معركة، ثم يتحدث سنحاريب «جئت عقرون وقتلت العمال «النواب» والحكام مرتكبي الذنوب وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة، وسكان المدينة المدانون بالجرائم والذنوب ضممتهم إلى الغنائم، والبقية منهم الذين لم يجلبوا لأنفسهم المعاصي والجرائم أمرت بالعفو عنهم أنقذت ملكهم بادي من أورشليم وأجلسته على كرسي الحكم وفرضت عليه أتاوة سلطتي». ولم تنته «هدية» عقرون عند هذا فقد أنعم سنحاريب على العقارنة المخلصين بقسم من القطعان المنهوبة من المناطق اليهودية القريبة منها التي سيق سكانها برمتهم إلى الأسر، وبسبب هذا فرض على عقرون أتاوة إضافية[4] وبهذا الشكل لم يكن العقارنة بسبب إخلاصهم لآشور فقط مسلوبين ومحرومين من قسم كبير من سكانهم المستغلين وإنما كان مفروضاً عليهم شيء أكبر بكثير من «إقرار السكينة».

وقد لا يكونون مسرورين من «سلم» آشوري كهذا ولكن سنحاريب لم يكن يستطيع أن يعطيهم غيره، والجيش المرابط المنحل معنوياً الذي يجب إعالته والذي عاش على حساب الحروب لم يفكر أبداً بشكل جدي لاتباع سياسة قادرة على إثارة اهتمام زعماء البلدان المقهورة الأغنياء.

وفهم سنحاريب أن الديمقراطية الآشورية لن تبقى طويلاً لأن العسكر المحيطين بالملك لم يهتموا كثيراً بتوجهاته السياسية، وإن الاعتماد عليها «الديمقراطية» كالاتكال على لا شيء.

وكان انتظار العون من الأقاليم وبخاصة بعد التنكيل العنيف بلا جدوى، أما ما يتعلق بالارستقراطية الآشورية فهي كانت دوماً تحمل العداء لسياسة سنحاريب الظالمة المستبدة ورأت في موت بابل تأكيداً لأسوأ مخاوفها. إن سنحاريب دمر بابل ولكن موت بابل دمره هو نفسه.

---

أ- عقرون اسم سامي معناه «استئصال» وهي أقصى مدن الفلسطينيين الخمس باتجاه الشمال. هاجمها سنحاريب وفتحها بعد حصار طويل سنة ٧٠١ ق.م وربما كانت عاقر وهي قرية بسيطة جنوب يافا باثني عشر ميلاً -المترجم.

ب- بعد أن رفع سنحاريب الحصار عن مدينة لخيش هاجم لبنة وهدد الملك حزقيا بانتقام قادم وتراجع إلى التقية حيث جرت المعركة وصد المصريين، ولكن غنائم النصر كانت زهيدة وتحول بعد ذلك إلى المدن المجاورة -المترجم.

وفي السنوات الأخيرة من حياته غير السياسة فجأة وبحث عن مخرج من الموقف القائم، ولقي الموقف الداخلي المتوتر في آشور التعبير عنه بالصراع على وراثة العرش ضمن الأسرة الملكية ذاتها. وبعد تردد طويل كان سنحاريب مجبراً على الاتجاه إلى التخلي عن الحزب البابلي وفي عام ٦٨٢ أو ٦٨١ ق.م عين أسرحدون وريثاً للعرش وهو واحد من أصغر أبنائه، ولعبت الملكة زاكوت الزوجة المحبوبة لسنحاريب ووالدة أسرحدون[أ] دوراً لا يستهان به في ذلك.

ورافق تعيين أسرحدون وريثاً للعرش تخلي مبدئي مهم جداً لسنحاريب عن الحزب البابلي.

ويروي أسرحدون في كتاباته هذا الحدث هكذا: «مع أنني أصغر الكبار فبإرادة الآلهة آشور وسين وشمش وبعل نابو وآلهة عشتار الأربيليه رفع الأب والدي في الحقيقة رأسي في اجتماع أخوتي قائلاً: «هذا هو وريثي» فقد سأل مستعرضاً ذبائح الآلهة شمش وأداد وتلك أجابته بحزم «نعم» قائلة «هو خليفتك» وعظّم كل أقوالهم وجمع شعب بلاد آشور معاً من الصغير إلى الكبير. أخوتي، أسرة بيت أبي. وأمر بتقديم الذبائح أمام آشور وسيب وشمش ونابو ومردوك آلهة بلاد آشور ساكني السماوات والأرض. مقسمين باحتفال مهيب لحماية وريثي»[5].

وبهذا الشكل خالف سنحاريب مبدأ وراثة السلطة الملكية وعلاوة على ذلك كان قراره تصديقاً للإجماع الشعبي، ودل ذلك على تراجع سنحاريب الكامل عن محاولات إقامة سلطة ملكية غير محدودة «مطلقة» وبهذا الثمن أراد أن يشتري دعم الحزب البابلي إلا أن تلك الخطوة كانت محتمة عليه.

فأبناء سنحاريب الكبار أدار ميليك وشارو أوتسور «شاريتسير» كانوا فعلاً في غاية الاستياء لأنهم حرموا من حقهم في العرش وحاولوا إجبار والدهم على تغيير قراره ولكن سنحاريب لم يفعل ذلك بشكل حاسم ودون أي تردد عند ذلك استغل ادار ميليك وشارو اوتسور في ١٠ كانون الثاني عام ٦٨٠ ق.م فرصة غياب أسرحدون وقتلوا سنحاريب بينما كان في زيارة لمعبد آلهة نينورتا في مدينة كلخ[6].

ونشر قتل الملك الذهول والاستياء في آشور إلا أن الأبناء القتلة لم يستطيعوا الاستيلاء على السلطة في نينوى عاصمة آشور ولم يدعمهم أحد. أما أسرحدون فمن دون أن يضيع وقتاً تحرك فوراً بحملة بالقوات الموجودة تحت قيادته ففر أخوته من نينوى وحاولوا استمالة القوات الواقعة على الحدود الشمالية الغربية للإمبراطورية، ولكن تلك القوات صارت إلى جانب أسرحدون عند اقترابه دون مقاومة، ولاذ الأخوة بالفرار طلباً للنجاة إلى بلاد أورارتو، وفي نهاية شباط عام ٦٨٠ ق.م عاد اسرحدون

أ- كانت من أصل سوري وأسموها بالآرامية نقية وصار بالترجمة الآشورية زاكوت.

إلى نينوى وشغل العرش الملكي وساعد نجاحه بقوة الارستقراطية الآشورية فقامت بالدعاية بكل الوسائط المتوفرة بين السكان لصالحه.

وفي حياة سنحاريب اتصل الحزب البابلي بأسرحدون آملا باستعادة بابل، وحول ذلك حادثة طريفة للغاية، فقد لجأ ولي العهد المقبل أسرحدون وأمه زاكوت إلى العراف بعل أو شيزيب. فتنبأ ذلك بأن أسرحدون سيتملك على بابل وسيبني المعبد البابلي الرئيسي إيساجيله، وزيادة على ذلك وعد دون تبصر بنهاية حياة موفقة لسنحاريب، وعندما قتل سنحاريب طرد أسرحدون بعل أو شيزيب لأنه كذاب وجاهل[7].

وعندما أصبح أسرحدون ملكاً بدأ فورا بإعادة بناء بابل، وانعطف بشدة إلى السياسة التي من الضروري أن تكون مقبولة من الرأي العام الآشوري وزيادة على ذلك لكي لا يسوّد ذكرى سنحاريب ولا يحرّض الحزب الآشوري للوقوف ضده.

وكانت المهمة ليست سهلة أبداً لأن ما قد مضى على هلاك بابل هو فقط تسع سنوات ولكن أسرحدون ومستشاريه استطاعوا الخروج من الموقف الصعب، وأثناء ذلك أطلقت رواية رسمية جديدة عن أسباب هلاك بابل بحيث بدا أن المذنبين بحق بابل هم البابليون أنفسهم الذين تفشى بينهم الكذب واضطهاد الأقوياء للضعفاء والرشوة واللصوصية. وقلة احترام الأبناء للآباء وعدم طاعة العبيد للأسياد وغيرها من الذنوب المميتة.

وطلباً للعون ضد آشور أقدم البابليون على تسليم العيلاميين كنوز معبد إيساجيله[8] عندئذٍ جلب مردوك إله بابل الرئيسي المحتدم غيظاً على المدينة الآثمة نهر أراخت «الفرات» ونكل بالبابليين.

ولم تتعرض الرواية ولا بكلمة عن مشاركة سنحاريب والقوات الآشورية في تخريب بابل وكأنهم لم يكونوا أثناء ذلك. ولكن اسرحدون قد صار ملكاً والآلهة ومردوك في طليعتهم بدلوا الغضب إلى رحمة وتفاءلوا كلهم مبدين انطباعاً بأنهم يرغبون بإعادة بناء بابل ومعبدها إيساجيله.

لقد صفح عن بابل ولكن لم يرد اعتبارها. ويبدو أن الملك سيستدعي جميع قوى الآلهة ليدعموا بقدرتهم مشايعيهم الأرخيين ويؤثروا على الرأي العام ويحطموا مقاومة الحزب الآشوري لإعادة بناء بابل الملعونة.

ولكن بقيت عقبه واحدة ذات أهمية لا يستهان بها، لأن المكان الذي كانت تقوم عليه بابل كان ملعوناً بلعنة رهيبة لمدة سبعين عاماً. وهنا أيضاً لجؤوا إلى خدعة ماكرة جداً.

فالعدد ٧٠ في الكتابة المسمارية يبدو هكذا: إذا بُدلت مواضع الإشارات من أماكنها ينتج العدد ١١ وهذا هو التركيب العددي الذي كتبه الإله مردوك معلناً أنه رأف على بابل وبهذه الطريقة اختصر مهلة اللعنة المخيمة عليها إلى أحد عشر عاماً وبهذه الحالة تم إعلان إعادة بناء بابل رسمياً من قبل أسرحدون في عام ٦٧٨ ق.م مع أن أعمال البناء بدأت في عام ٦٨٠ ق.م[9].

وأرسل أفضل الحرفيين الملكيين لإعادة بناء بابل وحشدت القوى العاملة من سكان بابل والأسرى من أطراف الإمبراطورية فحولوا مياه الفرات إلى مجراها السابق وقطعوا الأشجار والشجيرات والقصب الذي نبت في مكان المدينة، وقرر أسرحدون المشاركة شخصياً في وضع الأساس لبابل ومعبدها إيساجيله وبُدئ قبل كل شيء ببناء أسوار المدينة ومعبد إيساجيله، وأعيد بناء بابل حسب المخطط القديم ولم يبخل أسرحدون عليها لا بخشب الأرز ولا بالذهب والفضة ولا بالبرونز.

وصنع أفضل النحاتين والصاغة التماثيل والأدوات لإيساجيله، واستمرت أعمال إعادة البناء الأكثر من عشرين عاماً. ولكن الحديث لم يجر ببساطة عن إعادة بناء المدينة فأسرحدون أعاد بناء بابل بابلية لا آشورية، وهذا يعني أنه استعاد الجنسية البابلية وجمع الناجين من المذبحة وحرر البابليين المسترقين.

وأعاد إليهم ممتلكاتهم السابقة وسمح لهم بالسكنى في بابل وبناء البيوت وحفر القنوات وزرع الأشجار. واستلم البابليون من أسرحدون وثائق عن العفو وعن استعادة جميع حقوقهم وامتيازاتهم السابقة[10]، ورافق بعث الجنسية البابلية استعادتها لملكية الأرض. وكانت هذه المهمة واحدة من أعقد المهمات، ففي عام ٦٨٩ ق.م صودرت أراضي البابليين وأعطيت لإمارة بيت دكوري الكلدانية، وفي عام ٦٧٨ ق.م عندما تمت استعادة بناء بابل رسمياً أعاد أسرحدون للبابليين أرضهم السابقة، ورداً على ذلك أثارت إمارة بيت دكوري انتفاضة أخمدت بقسوة وأخذ الأمير الدكوري شمش - إبن أسيراً وأعدم بقطع الرأس «وأنهيت حياته على النطع»[11].

ولكن نزع الأراضي البابلية من الكلدانيين كان فقط جزءاً من المشكلات ومن أسهلها أيضاً وأصعب من ذلك بكثير كانت الحال في توزيع الأراضي بين البابليين، ففي سنة ٦٨٩ ق.م كان غالبية البابليين من ملاك الأراضي قد أعدموا بحيث أصبحت أراضيهم السابقة ملكاً للدولة والكثير جداً من أوساط الناجين والعائدين لا يملكون الوثائق التي تثبت حقهم بالأرض السابقة. وفي هذا الصدد لا يمكن الحديث عن الإعادة الكاملة لنظام العلاقات الزراعية القديمة الذي كان قبل عام ٦٨٩ ق.م فأسرحدون وموظفوه أعادوا ببراعة ممتلكات أولئك المالكين الذين استطاعوا إثبات حقوقهم. وبهذا الشكل استعيدت جملة من العقارات العائدة إلى الارستقراطيين الناجين وبقية الأراضي تمّ توزيعها من جديد إلى حصص، وعند ذلك بقي قسم من الأراضي في أيدي الكلدانيين لأن تعداد البابليين نقص بشدة. وأخذ هؤلاء الكلدانيون حقوق المواطنة وأدخلوا في قوام البابليين. وبحث موضوع الأرض وتقرر في المجلس الشعبي للبابليين في عام ٦٧٨ ق.م.

إلا أن تنظيمها النهائي تأخر إلى سنوات عديدة وترافق بدعاوى لا نهاية لها. وكمثال على ذلك يمكن أن يستفاد من قصة استعادة عقارات أداد - إبن فوالد الأخير «المذكور» مو شيزيب - مردوك سيطر على أملاك بيت هراهو وبيت نورية، وفي عام ٦٨٩ ق.م كان من نصيبهم حصة بيت داكوري الكلدانيين، ولكن موشيزيب مردوك نجا في عام ٦٧٨ ق.م وأعلن عن حقه في الأملاك على الرغم من أنه لم

يستطع تقديم الوثائق المطلوبة، ووعد أسرحدون شخصياً بمتابعة إدعاءاته وتلبيتها إذا كانت مدعمة بالحجج المطلوبة. وامتد التحري ١٩ عاماً بتمامها وحتى ذلك الوقت مات كل من موشيزيب مردوك والملك أسرحدون، وفقط في عام ٦٥٩ ق.م استلم أداد إبن موشيزيب بالنهاية أملاك الأب من الملك شمش شوم اوكين وعند ذلك حل الأمر على النحو الآتي: إن الأراضي المتنازع عليها موجودة ضمن أراضي إمارة بيت دكوري وبما أن أداد إبن كأبيه لم يكن عندهما أي وثائق عنها طلب الملك شمش شوم أوكين من الكلدانيين دليلاً مادياً على حقهم في حيازة الأرض، ولم يستطع الكلدانيون تقديمه فكان الأمير الدكوري نابو أوشاليم مجبراً على الاعتراف بأن كل الأملاك التي كانت حتى عام ٦٨٩ ق.م تعود إلى البابليين وبعد ذلك أعطيت إلى أداد إبن[12].

وتدل هذه القصة كيف وقف أسرحدون وابنه شمش - شوم أوكين باهتمام تجاه إدعاءات الارستقراطيين البابليين، وبهذا كله لم يستطيعا أن يعيدا ارستقراطية بابل القديمة على الوجه الأكمل، فقد ماتت إلى الأبد.

وبابل التي أعيد بناؤها عام ٦٧٨ ق.م كانت بابل حديثة ولذلك فالذي ولد هو مجتمع بابلي جديد، وبدأ انقلاب زراعي، وولدت ملكية عقارية صغيرة وجنسية بابلية مزدهرة كانت مقبلة على انحطاط كامل قبل عام ٦٨٩ ق.م[13].

والآن لنتوقف عند زمن الحكاية، أي عند زمن ولادة بابل الحديثة ولنطرح على أنفسنا هذا السؤال: لماذا احتاج أسرحدون والأرستقراطية الداعمة له إلى إعادة بناء بابل والجنسية البابلية المعادية لآشور؟

أليست النتيجة النهائية لهذه السياسة كانت موت آشور في الوقت نفسه الذي شاركت فيه بفعالية في بعث بابل؟

هل صحيح أن أسرحدون ومحيطه كانوا قصيري النظر لدرجة أنهم بأيدهم صاروا لحادي وطنهم؟

والإجابة على هذه الأسئلة يقدمها تحليل حالة المجتمع الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد، فقد تم الحديث أعلاه عن إصلاحات تغلات بلاسر الثالث وعن نتائجها المباشرة.

إن الشعب الآشوري مات، وذاب في لجة سكان الإمبراطورية المنصهرين بالآرامية الذين لم يكونوا مهتمين ببقاء الدولة الآشورية، ومع أن هؤلاء السكان حملوا عسف الآشوريين وبغضاء آشور لكن لم تكن عندهم القوى والإمكانات لمقاومة ظلمها، وبقي من شعب آشور القديمة حفنة من أرستقراطيي المدن الآشورية القديمة آشور ونينوى وكلخ وأربيل وحران ومن حولها بحر مضطرم من الكراهية لدرجة الحرارة البيضاء.

هذه الحفنة العائشة على حساب عرق ودماء سكان الإمبراطورية لم يكن عندها أي سند آخر غير الجيش الذي من حيث قوامه كف أكثر وأكثر عن أن يكون آشورياً. هذا ما تحولت إليه آشور في القرن السابع قبل الميلاد.

وفهم ممثلو، الأوساط الحاكمة الآشورية الأكثر فطنة أن هذا لا يمكن أن يستمر طويلاً، وهكذا اتجهت أنظارهم نحو بابل حيث رأوا في هذا الشعب الشقيق «المنقذ الوحيد» وآشور تستطيع أن تتجنب الكارثة فقط في حالة إذا اتحدت مع البابليين، فالدولة الآشورية - البابلية الثنائية - هذا هو ما توصلت إليه الأوساط الحاكمة الآشورية في البحث عن النجاة من الانهيار القادم وهذا يوضح سبب إعادة بناء أسرحدون لبابل!

إلا أن هذه السياسة كان لها في آشور نفسها عدو بشخص الحزب الآشوري، وهذا يعني العسكر الجزء الأكثر تعطشاً لسفك الدماء والأقصر نظراً من الصفوة الحاكمة.

وتطلع العسكر للعب الدور الأول في الدولة ولذلك وقفوا بانتباه شديد من فكرة الثنائية الآشورية - البابلية، معتبرين بإنصاف أن الجنسية البابلية هي منافسهم الرئيس، وظلت المسألة البابلية باستمرار الجوهر الأساسي للصراع السياسي الداخلي في آشور. ولم يجرؤ أسرحدون على القيام بخطوة حاسمة لإعادة بناء بابل بابلية، فهو لم يُعِد لبابل حكمها الذاتي وتمثال الإله بعل مردوك الرمز الحكومي لوجود بابل ما زال في الأسر الآشوري في مدينة آشور حيث نقل إلى هناك كغنيمة سنحاريب، وبابل لم يكن لها ملكها وظلت باقية إقليماً آشورياً مع أنها مميزة، وطالما بقي الوضع هكذا لم يكن ممكناً أن يدور الحديث عن أي ثنائية آشورية بابلية.

وهنا من الملائم بوقته إيضاح بعض خصائص نظام بابل السياسي الذي اتخذ شكله النهائي تدريجياً في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد.

لم تكن بابل دولة استبدادية شرقية فقط ولكنها ما كانت أيضاً حتى دولة ملكية بكل ما للكلمة من معنى، بل بالأحرى كانت جمهورية أرستقراطية يحكمها ملك يعاد انتخابه سنوياً، وتجري إعادة انتخاب الملك سنوياً في وقت عيد رأس السنة في نيسان الشهر الأول في التقويم القمري البابلي الذي يوافق شهر آذار نيسان في تقويمنا الشمسي. حيث ينقلون في عيد رأس السنة الجديدة تمثال الإله نابو إله بارسيب الرئيس من مدينة بارسيب إلى بابل في مركب «شختورة» كبير مقدس معد للاحتفالات الخاصة بقناة نار - سيب وعند بوابة الإله أورشا في بابل ينزلون حاملين الإله إلى اليابسة في موكب احتفالي عبر هذه البوابة في شوارع المدينة حاملين الإله نامو إلى معبد إيساجيله مسكن الإله بعل الذي يعتبر نابو ابنه، ويحضر الملك إلى إيساجيله وينزع عن نفسه الشعارات الملكية ويؤدي جملة من مراسم التعهد أمام تمثال الإله بعل بحضور الإله نابو، وبعد ذلك يعتبر منتخباً من جديد ويستلم شعارات الجلالة الملكية السابقة.

وتُكرر هذه المراسم سنوياً ولكن حتماً بوجود تمثال الإله بعل وتمثال الإله نابو وبمشاركة الملك لأنه من دون هذه الشخصيات الثلاث لا يمكن أن يتم العيد برأس السنة الجديدة.

وبعد موت الملك يشغل خليفته العرش حتى السنة الجديدة القادمة وعندئذ تجري الاحتفالات الموصوفة أعلاه ويصبح الملك بالوقت ذاته رمزاً يجري حساب عمر البابليين بعدد سنوات تملكه وعند ذلك فقط تبدأ السنة الأولى من حكم ذلك الملك البابلي بعد رأس السنة الجديدة لتملكه والسنة السابقة سنة موت الملك السابق أو انتهاء تملكه واعتلاء الملك الجديد للعرش تسمى وفقاً لذلك «بالسنة... كذا لملك بابل... الفلاني» و «سنة بداية ملك بابل الفلاني». واتبع هذا النظام في بابل بصرامة ولهذا السبب ما دام لم يكن تمثال الإله بعل في إيساجيله فبابل لا تحتفل بالسنة الجديدة ولا يمكن أن يكون هناك ملك. وعلى العموم لم تكن بابل موجودة كدولة.

والحزب الآشوري لم يسلم باستعادة بابل وإنما سلم باستعادة نظام الدولة البابلية وهذا بالضبط ما سعى إليه اسرحدون ومحيطه. وفي كتاباته الرسمية سمى أسرحدون نفسه دوماً بـ «شاكان - أكو» أي الوصي على عرش بابل ملك آشور وأكاد وليس بابل لأنها هي لم تكن موجودة. غير أن أسرحدون استعد شيئاً فشيئاً لإعادة الإله بعل إلى إيساجيله وتبوئه عرش بابل.

وفي عهده أعدت شروحات تفصيلية حول إقامة وقائع نقل الإله بعل من آشور إلى بابل، وكذلك عند بناء المعابد في بابل وغيرها من المدن استعملت لبنات «آجرات» عليها وسمات في بعضها أوامر أسرحدون مع الألقاب الأخرى له مذيلة بتوقيع «ملك بابل».

وبهذا الشكل استعد هذا الملك لجمع شمل آشور وبابل في وحدة تامة. إلا أن خطط أسرحدون لم يقدر لها أن تتحقق لأن الحزب الآشوري أعاق تنفيذها مسبباً الصراع المكشوف، وكان السبب في هذه المرة مسألة وريث العرش. فالحزب الآشوري عارض بشكل حاسم ترشيح شمش شوم أوكين الابن الأكبر لأسرحدون. وكان مرشحه آشور بانيبال الابن الثاني للملك الذي هيأه أسرحدون ليصبح كاهناً «لمهنة الكهنوت» وعمل على تعليم وتربية آشور بانيبال أشهر المعلمين والمنجم نابو - آخي - ريب، واستطاع الحزب الآشوري استخدام أسلحة عدوه للوصول إلى تعيين آشور - بانيبال وريثاً للعرش ومنها خاصة سابقة تعيين أسرحدون وريثاً للعرش، ونفوذ الملكة الأم زاكوت التي كان آشور بانيبال هو حفيدها المحبوب.

وبالاستفادة من فشل الحملة التي قام بها أسرحدون على مصر في عام ٦٧٣ ق.م أجبر الحزب الآشوري الملك في أيار عام ٦٧٢ ق.م على إعلان آشور بانيبال وريثاً للعرش وأقر مجموع الشعب هذا التصرف وعلى إثر ذلك بدأ السكان بأداء القسم «مبايعة» لآشور بانيبال.

وسار الأمر في آشور بهدوء أما في بابل فقد لقي مقاومة، وبعث أسرحدون بالوجهاء الرفيعي المقام آمراً إياهم بعقد المجلس الشعبي لبلاد أكاد وفقط بهذه الطريقة نجح في إجبار البابليين على القسم لآشور بانيبال[14].

وكان الأكثر استياءً الارستقراطية البابلية التي تعززت للغاية حتى هذا الوقت بالاستفادة من رعاية أسرحدون، فقد رأت في آشور بانيبال تهديداً للثنائية

الآشورية البابلية التي أملت أن يكون لها الدور الريادي في الإمبراطورية، ووصل الأمر إلى حد الإفراط في التطرف ففي يوم أداء آشور بانيبال القسم حاولت مجموعة من كبار الإقطاعيين في لابانات ضاحية بابل إثارة العصيان والمناداة ببعل أريبو الحفيد الثالث للسلالة الملكية الكوشية التي ملكت في بابل منذ القرن السادس عشر وحتى الثاني عشر قبل الميلاد ملكاً إلا أن هذه المحاولة قضي عليها بسرعة ولم يكن لها أثر[15].

وبصفته وريثاً للعرش شغل آشور بانيبال مقاماً رفيعاً جداً وجعل من نفسه مساعداً لأبيه وأدى هذا إلى تأفف «تململ» ليس فقط الحزب البابلي وإنما بعضاً من أفراد الأسرة الملكية فلم تستطع الأميرة شيروا أتيرات الابنة الكبرى للملك أسرحدون أبداً أن تتصالح مع التي هي الآن بدور «السيدة الأولى» كما تدعي آشور - شارات زوجة ولي العهد آشور بانيبال واحتدمت بينهما معارك كلامية حامية أدت إلى تدخل القصر الملكي بأكمله[16]، ولكن المخاصمات النسائية استطاعت أن تصل إلى أبعاد متماثلة فقط لأن الصراع بين الحزبين الآشوري والبابلي كان من ورائها.

وأخيراً استطاع أسرحدون في عام ٦٧١ ق.م أن يحتل مصر وهذا النجاح الحربي الكبير والغنائم الهائلة رفعت من هيبته التي كانت مزعزعة وأجبرت الحزب الآشوري على السكون وفي أيار عام ٦٧٠ ق.م عين أسرحدون شمش - شوم - أوكين وريثاً للعرش البابلي مساوياً بالمرتبة مع آشور بانيبال وريث العرش الآشوري.

من الصعب القول ما الذي دعا أسرحدون لهذه الخطوة! لعله أراد أن يمنح رِضاه لحبيبه شمش - شوم - أوكين وللبابليين.

وأطرى متملقو البلاط فعلة الملك هذه كقمة في الحكمة السياسية ولكن الناس الأكثر فطنة فكروا غير ذلك.

فأداد - شوم - أوتسور الكاهن والمنجم والطبيب المقرب جداً من الملك لم يخشَ أن يكتب لأسرحدون «أنت قلدت واحداً من أبنائك الثياب الملوكية وأعطيته السلطة الملكية على بلاد آشور وأخوه الأكبر عينته للتملك على بابل فما فعله الملك مع ملوك صغار يا سيدي ليس جيداً لبلاد آشور»[17].

لقد قال أداد - شوم - أوتسور الحقيقة المرة. لأن أسرحدون بأعماله طرح فكرة الثنائية جانباً واستبدلها بفكرة الاتحاد المتكافئ الحقوق بين آشور وبابل التي ليس لها أي حظ بالنجاح، لقد دمر الأمل الوحيد لإنقاذ آشور، وهذا ما عنت به الكلمات أداد - شوم - أوتسور الذي في سورة من الغضب فرض عليه أسرحدون عقوبة النفي إلى مدينة أغاد البابلية ولكن بهذا ازدادت هيبة المنجم، وعندما نشرت في القصر شائعة أنهم زعموا أنه رأى في السماء نذير شؤم «سوء طالع» لشمش - شوم - أوكين أرسل أسرحدون القلق رسولاً خاصاً إليه وهدّأ المنجم المنقوم عليه الملك بأن أعلن مقسماً أنه لم يرَ في السماء أي علائم وأن الإشاعات المقلقة لم تصدر عنه[18].

وتقبل الحزب الآشوري بعداوة بالغة تعيين شمش - شوم - أوكين وريثاً للعرش البابلي ففي مدينة حران دبّر ساسي حاكم المدينة المحلي مؤامرة كان هدفها خلع أسرحدون وكل بيته ونوى ساسي نفسه أن يشغل العرش الملكي ولكن المؤامرة اكتشفت وأعدم الإقطاعيون الكبار المتآمرون[19].

وفي سنة ٦٦٩ ق.م تمردت مصر المحتلة منذ زمن غير بعيد وتحرك أسرحدون بحملة ولكنه مرض في الطريق ومات في «تشرين الثاني عام ٦٦٩ ق.م».

واعتلى آشور بانيبال العرش واصطدم فوراً بالصعوبات وكان عليه تنفيذ وصية أبيه باسترجاع المملكة البابلية وتولية شمش - شوم - أوكين عرشها[أ] ولكن الحزب الآشوري الذي بدعمه كان آشور بانيبال مديناً له بالعرش وقف ضد ذلك. وكان آشور بانيبال خائر العزيمة متردداً ومقابل ذلك كانت جدته الملكة زاكوت حازمة وشرعت بعزم على أداء السكان القسم للملك الشاب كما ألزم القسم الآشوريين على النضال بكل قواهم ضد أعداء آشور بانيبال والتجسس عليهم والإبلاغ عنهم[20]. وأعير انتباه خاص لئن يؤدي القسم لشمش - شوم - أوكين أولئك الذين اقترحوا أن لا يكون هو ملكاً وإنما تابعاً للملك الآشوري وانتشرت في بابل موجه من الاستياء المكشوف ولكن الآشوريين عملوا بحمية ودون رحمة وأجبر البابليون على أداء القسم للملك الآشوري[21].

وعلى كل حال أخذ آشور بانيبال يتراجع أمام المعارضة وبقي متردداً طوال الشتاء كله، وفي نيسان سنة ٦٦٨ ق.م سأل وسيط الوحي «العراف» للإله شمش «هل على شمش - شوم - أوكين أن يأخذ بيد الإله السيد العظيم الإله مردوك في المدينة»؟ و «هل يجب إعادة الإله مردوك من آشور إلى بابل»؟ وفي كلتا الحالتين أعطى العراف جواباً إيجابياً[22] عندئذٍ في شهر أيار «أيار - حزيران» من عام ٦٦٨ ق.م قرر آشور بانيبال تنفيذ الوصية الوالدية.

ونفذت عملية إعادة تمثال الإله بعل بمطابقة صارمة «بموجب» للمراسم المعدة بدقة منذ عهد أسرحدون وتحرك الموكب من آشور بالمراكب نزولاً بدجلة ثم بقناة نار - شارّي «النهر الملكي» فالفرات وسيراً على الأقدام إلى بابل وعلى طول الطريق يقدم المحتفون ذبائح الحملان والثيران ويحرقون البخور.

وترافق الموكب مفرزة آشورية مختارة وتعزف الموسيقى ونهاراً ويخرج سكان المدن المجاورة لملاقاة الموكب مع أوثان آلهتهم ليحيوا الإله بعل ولهذا الغرض تم إحضار تماثيل الآلهة نرجال من الكوت ونابو من بارسيب وشمش من

أ- قمعت هذه الانتفاضة المصرية في عام ٦٦٧ ق.م والمصير ذاته لاقته انتفاضة عام ٦٦٤ ق.م ولكن في عام ٦٥٤ ق.م خلعت مصر الموحدة تحت حكم الفرعون بسماتيك الأول النير الآشوري إلى الأبد.

سيبار خصيصاً إلى بابل ويدخل الإله بعل احتفالياً إلى إيساجيله وعند هذا يحضر شمش - شوم - أوكين المرافق للموكب سوياً مع الإله بعل إلى بابل.

وفي ١٣ أيار «أو ١٢ حزيران» عام ٦٦٨ ق.م جرت مراسم انتخاب الملك وأصبح شمش - شوم - أوكين ملكاً على بابل واستعادت بابل من جديد نظام الدولة[23].

ولم تستطع السلسلة المتواصلة من الأعياد والاحتفالات وتقديم الذبائح والقرابين أن تخدع البابليين فيما يتعلق بحقيقة الأمر. فهم ما زالوا يذكرون أن آشور بانيبال أخّرَ عودة الإله بعل وتولي شمش - شوم - أوكين على عرش بابل لمدة عام ونصف وارتكب مخالفة فاحشة بالنسبة للتقليد. وخلافاً لذلك التقليد جرى الاحتفال بعيد رأس السنة «السنة الجديدة» وانتخاب الملك في بابل ليس في أول نيسان وإنما في الشهر الثاني «أيار» من السنة لذلك أراد آشور بانيبال أن يجري بنفسه تتويج شمش - شوم - أوكين مخلفاً شهر نيسان لأنه لا يستطيع أن يؤجله حتى السنة الجديدة القادمة. وأمسك البابليون عن الجواب ولكنهم تصرفوا على هواهم مسمين عام ٦٦٨ ق.م «سنة تولي شمش - شوم - أوكين ملك بابل» ودون أن ينتظروا أذناً لم يعترفوا بتتويجه إلا من نيسان التالي فقط في عام ٦٦٦/٦٦٧ بدء السنة الأولى لشمش - شوم - أوكين ملك بابل.

غير أن آشور بانيبال اضطر أن يدفع لقاء هذا السكوت ثمناً غالياً جداً. فهو يعلن في حولياته «أنا عينت شمش - شوم - أوكين ليتولى الملك في بابل. أعددت وأعطيت له كل ما هو مقرر لتكريم الجلالة الملكية. جمعت وسلمت له العساكر والخيل والعربات. ونميت المدن والحقول والحدائق «البساتين» والناس القاطنين فيها وأعطيته أكثر مما أمر به الأب والدي»[24].

وبعبارة أخرى من العدل الأخذ بالحسبان أن الحاكم الأعلى لبابل آشور بانيبال أعطى شمش - شوم - أوكين القوات وكذلك مدن نيبور وأوروك مع مناطقهما، وهذا يعني كامل بابل الوسطى أي الذي لم يكن مستدركاً «مذكوراً» في وصية أسرحدون، والبابليين من جهتهم استغلوا الموقف بمهارة فهم توصلوا إلى أن امتيازاتهم كانت مقررة من آشور بانيبال وليس من شمش - شوم - أوكين وعلاوة على ذلك وبناءً على طلبهم أعطوا صبغة شرعية للزواج بين البابليين والنساء الغربيات الأجنبيات والعيلاميات والتاباليات والأخلاميات فالبابليون تزوجوا من تلك النساء في زمن الهجرة من سنة ٦٨٩ ق.م إلى سنة ٦٧٨ ق.م والآن فإن ما حصل هو أن أولادهم الذين ولدوا كان معترفاً بهم مواطنين بابليين[25] كاملي الحقوق وتكون ظاهرياً موقف ودي للغاية بين آشور بانيبال وشمش - شوم - أوكين وسموا بعضهم بعضاً «الأخوة الأشقاء» حتى أن آشور بانيبال رفض لقب «ملك سومر وأكاد» الذي حمله أسرحدون لصالح شمش - شوم - أوكين.

ولكن مع ذلك لم تفته فرصة التشديد على سلطته العليا على بابل كلما نال من شمش - شوم - أوكين والبابليين.

وهكذا قدم آشور بانيبال القرابين بصورة منتظمة للآلهة البابلية مع أن هذا الحق يعود حسب التقليد فقط لملك بابل.

وجرت أعمال البناء في المعابد البابلية باسم آشور بانيبال وليس باسم شمش - شوم - أوكين وأشرف على الأعمال في معبد إيساجيله المهندس المعماري الآشوري أردي - أخيش.

وكان يستمع بلطف لمقترحات شمش - شوم - أوكين ولكنه يفعل بما يأمر به آشور بانيبال[26] وباسم آشور بانيبال والمشاركة المباشرة للجنود الآشوريين تمّ إكمال بناء سور بابل ولم يدخر وسيلة لأعمال البناء والهدايا الفخمة للمعابد.

ولم يؤكد آشور بانيبال سيطرته على بابل فحسب بل تطلع إلى كسب عطف المواطن البابلي ومسالمته ومصالحته مع السيادة الآشورية، وفي الوقت نفسه لم يثق آشور بانيبال لا بالبابليين ولا بشمش - شوم - أوكين ووضع نائباً له في بابل ورابطت فيها حامية آشورية. ومن فوق رأس شمش - شوم - أوكين خالط آشور بانيبال كثيراً من البابليين وتعاملوا معه كملكهم وسيدهم مسمين أنفسهم عبيده، وكأن شمش - شوم - أوكين غير موجود عموماً.

وكان في عداد مراسلي آشور بانيبال المنجمون والكهنة والأطباء والفلكيون والموظفون والأشخاص العاديون.

وهكذا نسخ العالم أشارید لمكتبة آشور بانيبال رُقُم «ألواح» الملك البابلي القديم حمورابي والصائغ نابو - ساغيب أعد الزينة للملكة الآشورية آشور - شاريت.

آشور بانيبال وزوجته آشور - شاريت يستريحان تحت عريشة في الحديقة وعلى الشجرة علق رأس الملك العيلامي المقطوع تيومان

والمهندس المعماري نابو - شوم - أوشكين كتب إلى آشور بانيبال عن سير أعمال البناء والحائك مردوك شارو أوتسور طلب مساعدة آشور بانيبال لإرجاع بيته وملابسه وصوفه المصبوغ وحجر الشب، والنطرون، وتضرع واحد من البابليين يدعى مردوك ناصر إلى الملك الآشوري لأن يحرره من ملاحقة الأعداء.

غير أنه كان هناك مراسلون من نوع آخر مثل نابو - بالاست - إكبي. وإدين الذين كانوا يخبرون آشور بانيبال عن حالة حامية إحدى المدن البابلية وعن حدوث اضطرابات هناك، وأحد الجواسيس يبلغ باستمرار عن كل ما يحدث في أوروك وآخر عن ماذا فعل الملك البابلي.[27] وإن هادن البابليون آشور بانيبال بطريقة ما بأعماله وذلك لأنهم رأوا منه خيراً كثيراً فكل ذلك لعدم وجود الآشوريين الذين

فرضوا أنفسهم فاتحين في بلادهم فهم لم يستطيعوا أن يألفوهم بأي حال من الأحوال. ولم يتوقف اغتيال الموظفين والجنود الآشوريين المنفردين في بابل. وكان شمش - شوم - اوكين والنائب الآشوري مضطرين لغض النظر عن ذلك[28].

ولم تتوقف بابل عن الإحساس بالظلم «النير» الآشوري وتعاظم الاستياء وسط البابليين ولا سيما شمش - شوم - أوكين الذي شعر بحدة بالإهانات وعدم مساواته في الحقوق ولم يستطع مسامحة آشور بانيبال لفقدانه العرش الآشوري وانتقاص حقوقه كملك بابل. وتستر شمش - شوم - أوكين بقناع الولاء وحقد على أخيه الأصغر بشدة وتعطش للثأر.

ولم يقطع العلاقة مع أنصاره في آشور ولم يمسك جواسيس آشور بانيبال ولا مرة رسائله غير أن شمش - شوم - أوكين عرف النظام الآشوري جيداً وكان حذراً للغاية[29].

وفي غضون ذلك انزل الآشوريون في عدة حروب خسائر فادحة بالعيلاميين والكلدانيين وتحت ضرباتهم سقطت غامبول واحدة من أقوى الإمارات الكلدانية في بابل.

وسُحِقَ الملك العيلامي تيومان في المعركة عند توليز قرب سوز سنة ٦٥٣ ق.م وقتل وعلق رأسه المقطوع على شجرة في القصر الملكي في نينوى كي يتمتع آشور بانيبال وزوجته آشور - شارات عندما يستريحان ويشربان النبيذ في الحديقة تحت العريشة، وأدرك شمش - شوم - أوكين أن بابل يمكن أن تصمد في الصراع مع آشور فقط بدعم من الحلفاء الأقوياء وبالدرجة الأولى عيلام والكلدانيون ولذلك خسارة عيلام الدولة الوحيدة القادرة أن تواجه آشور وجهاً لوجه. وغامبول أخرجته من التردد.

وفي ليلة ١٨ حزيران سنة ٦٥٣ ق.م حدث خسوف قمري حير شمش - شوم - أوكين وتنبأ له المتنبئون بالنحس فلجأ الملك المروع إلى الآلهة آنونيت بالصلاة بيأس لا عزاء له «يا آنونيت تشفعي لأجلي عند إلهي لكي يحول دون المصير المحتم بسبب ذنوب البلاد وفضائحها نعم لينتقم هو ويخلص أرضي يا سيدة السماء أيتها الأم الرحيمة لأنك أنت ملكة الكواكب التي لا عد لها أوكل إليك رب الأرباب نعم ليعاملني هو كما يجب، أنا شمش - شوم - أوكين الملك العظيم السيئ الحظ على الرغم من أن مردوك إلهي وتسار بانيت ربتي - الموسوم بالشؤم والمنذر بالمصائب النازلة على عرشي وبلادي التي ملأتني رعباً. إني مزعزع ارتجف إني خائف ويلٌ لي ولبلادي ويلٌ للعرش ويلٌ للتاج ويلٌ للكهنة ويلٌ للقرابين. أعطني لباس الفرح وانزعي لباس الحداد إلهي وآلهتي بذبيحة فريدة خارقة للعادة. إني أنحر الخراف من ضياعي أيتها الأم الرحيمة، وجهي سلطان الآلهة كي تحول سوء الطالع وتزور بلاد عدوي وتنزل به الحكم الذي لا محيد عنه»[30].

وقرر شمش - شوم - أوكين أن ساعته قد دنت فإما الآن وإلا فلا لأن الآلهة أطلعته أن آشور بانيبال رفع سيفه فوقه وإذا عيلام سقطت فلا شيء في العالم يمنع هذا السيف من النزول وأقدم شمش - شوم - أوكين على الانتفاضة لكي ينجو من

مصيره. ونجح الملك البابلي في مهلة قصيرة بإنشاء تحالف واسع ضد آشور دخل في قوامه عيلام وعدد من الإمارات الكلدانية في بابل «بلاد البحر - بوكودو - وآخرون» وكذلك إمارات غرب إيران «بما فيها بارسوماش - بيرسيد» وإلى الغرب من دول التحالف انضمت العربية وعلاوة على ذلك يبدو أن شمش - شوم - أوكين دخل في علاقات مع مصر وليديا التي حطمت مرة النير الآشوري.

ولا يمكن القول أن نشاط شمش - شوم - أوكين بقي في سرية مطلقة عن الآشوريين، فمجموعة كاملة من العملاء أخبرت نينوى في حينه عن العلاقات المشبوهة لملك بابل والمشاركين الآخرين في التحالف، ووجدت تقاريرهم في أرشيف آشور بانيبال أثناء التنقيبات في نينوى. إلا أن هذه الإنذارات لم تعط الأهمية المطلوبة وفي النتيجة تكبد الاستطلاع الآشوري هزيمة لم يسبق لها مثيل وضعت البلاد على حافة الكارثة فقد أهمل كيف تجهز جميع الجيران والموالين ضد آشور.

وفي ربيع عام ٦٥٢ ق.م أعد شمش - شوم - أوكين سفارة فخرية إلى نينوى لتكريم آشور بانيبال وتحت هذه الذريعة طرد زعماء التجمع الموالي لآشور من بابل في أثناء تبادل السفراء البابليين وآشور بانيبال المجاملات والهدايا.

وبدأ شمش - شوم - أوكين بالانتفاضة ولم يتوقع آشور بانيبال ولا في حال من الأحوال أن تدور الأحداث بهذا الشكل ولم يكن في متناول يديه القوى الكافية لكي يرسلها فوراً إلى بابل.

ولم تكن انتفاضة شمش - شوم - أوكين أقل توقعاً حتى عند البابليين أنفسهم فحلقة واسعة من البابليين ما عرفت بنوايا ملكها فقد أعدت الانتفاضة بسرية عميقة عن المحيط الأرستقراطي لشمش - شوم - أوكين هؤلاء الإقطاعيون الكبار الذين جاء آباؤهم بالكارثة إلى بابل في عام ٦٨٩ ق.م لم يستفيدوا من أي عبرة من عبر التاريخ واندفعوا في المغامرة دون أن يفكروا في عواقبها.

إلا أن الجماهير الأساسية من المواطنين البابليين لم تكن متعطشة على الإطلاق لحمل السلاح مع أنها لم تبد أي ود إلى الآشوريين، وأقبل شمش - شوم - أوكين قبل كل شيء على إقناع البابليين بضرورة الحرب مع آشور.

وطوال صيف وخريف عام ٦٥٢ ق.م جاش الخوف في بابل وناقش الواحد الآخر في المجالس الشعبية هذا السؤال: هل تكون أو لا تكون حرب مع آشور؟ وتردد البابليون وقام آشور بانيبال بمحاولة يائسة لمنعهم من الثورة وأرسل أحد السفراء البابليين الموجودين في نينوى شاماش بالاتسو - إكبي في شهر حزيران عام ٦٥٢ ق.م مع رسالة خاصة من آشور بانيبال يناشد فيها الملك الآشوري البابليين ألاّ يسمعوا للكذاب الغشاش كما سمى شمش - شوم - أوكين، وأن لا يسوّدوا سمعتهم بالعصيان ويعبثوا بالقسم، وذكرهم بامتيازاتهم التي أقرها آشور بانيبال لهم، وبأخوتهم مع شعب آشور. وفي الختام طلب أن لا يلحقوا ضرراً بالحامية الآشورية المرابطة في بابل.

إلا أن رسل وتهديدات آشور بانيبال لم تؤثر شيئاً فعند البابليين كان الاستياء كبيراً من الآشوريين وقرروا دعم ملكهم.[31]

وإلى جانب البابليين قامت سيبار وبارسيب ونيبور بالثورة ولكن كثير من المدن البابلية بما فيها الكوت وأوروك رفضت دعم شمش - شوم - أوكين وظلت على ولائها لآشور وبقي إلى جانب هذه الأخيرة أيضاً إمارات بابل المتوسطة الكلدانية بيت أموكان وبيت - داكوري.

ومن حلفاء شمش - شوم - أوكين في الحرب ضد آشور قام على الفور فقط العرب الذين أغاروا على الممتلكات الآشورية في سورية وفلسطين وقيدوا قوات آشور بانيبال الموجودة هناك، ولم تقدم مصر وليديا أي مساعدة حقيقية لشمش - شوم - أوكين أما فيما يتعلق بعيلام والكلدانيين فقد ترقبوا واستعدوا للحرب.

وعلى هذا النحو لم يتم قيام الحلفاء ضد آشور بوقت واحد وهذا أضعف الثورة منذ البدء بصورة جدية.

غير أن شمش - شوم - أوكين تصرف بسرعة وحماس. ودون أن ينتظر آشور بانيبال حتى يحشد قواه سوية مع المفارز العربية التي جاءت إليه للمساعدة بالاستيلاء على الكوت وطهر كامل شمال بابل من الحاميات الآشورية[32] وفي نيسان عام ٦٥١ ق.م ظهر الجيش الآشوري على مشارف بابل وعند سور المدينة نشبت معركة ضارية وظل النصر إلى جانب الآشوريين وتراجع شمش - شوم - أوكين والبابليون إلى المدينة[33] ولكن في هذا الوقت من الحرب ظهر العيلاميون وكلدانيو بلاد البحر الذين حصلوا على كنوز معبد إيساجيله البابلي من شمش - شوم - أوكين بمثابة أجر للمساعدة وأرسل الملك العيلامي أوما نيغاس الثاني قواته إلى بابل وحاصر العيلاميون أوروك وانقض حاكم بلاد البحر نابو - بعل شوماتي على أور فاستسلم له سكان المدينة الذين لم يتلقوا المساعدة من آشور بانيبال وأدى بهم الحصار إلى أكل لحم البشر، وبخسارة أور فقد الآشوريون كامل جنوب بابل وبقي في أيديهم حتى الآن فقط أوروك المدينة الضخمة والمحصنة جيداً والتي أعاقت توحيد قوى شمش - شوم - أوكين ونابو - بعل - شوماتي والعيلاميين وامتد حولها صراع شديد. وهنا تقرر مصير حملة عام ٦٥١ ق.م.

واحتمل الآشوريون التجربة وهزموا شمش - شوم - أوكين مرة أخرى في الموقعة عند باب - سامي ولم يسمحوا بالاتصال مع العيلاميين، وفي شهر شباط عام ٦٥٠ ق.م استولوا على نيبور ثم في المعمعة عند مغنيسيا «قرب ديرا» ألحقوا الهزيمة بجيش الملك العيلامي أومانيغاش الثاني، والنجاح الأكثر أهمية حققته الخدمة السرية «الاستخبارات» الآشورية فقد دبرت انقلاباً حكومياً وقُتل الملك اوما نيغاش الثاني وأقرباؤه واستولى تاماريت على العرش وكانت عيلام مشلولة إلى حين وخرجت من الحرب وانتقلت المبادرة إلى الآشوريين وحققوا انعطافاً في سير الحرب.

ومن ربيع ٦٥٠ ق.م بدأت سكرة الموت الأليمة للثورة. وحاصر الأشوريون بابل وبارسيب وسيبار والكوت. وهنا صارت قواتهم الأساسية مقيدة فالمدن المحصنة جيداً دافعت بجسارة وكانت القوى الأساسية للآشوريين موجهة لكي لا يعيق العيلاميون والكلدانيون الحصار، واعتباراً من هذا التأريخ قررت العمليات القتالية على ظهر السفن «يقصد البحرية» في المناطق الساحلية وأعمال العملاء في عيلام نتيجة الحرب.

وفي الجنوب خاض النضال مع الكلدانيين بعل - إبنِ أحد أكبر الشخصيات السياسية والعسكرية البابلية في ذلك الوقت، وبعل إبنِ الكلداني الأصل كان في خدمة الآشوريين وبرز في الدفاع عن أوروك وفي نيسان ٦٥٠ ق.م عينه آشور بانيبال نائباً على بلاد البحر وكلفه بالصراع مع نابو - بعل - شوماتي وأحسن بعل - إبنِ أداء هذه المهمة مع نابو - بعل شوماتي الذي تكبد عدة هزائم وبخسارته جزيرة ديلمون حيث أودع كنوزه اضطر إلى ترك بلاد البحر والمضي إلى المناطق الساحلية لعيلام ومن هناك قاد حرب أنصار ضد بعل - إبنِ الذي لم يأخذ إلا قليلاً بالحسبان بأوامر آشور بانيبال لأنه شعر بنفسه أنه أمير مستقل في بلاد البحر.

وصار هذا الآن حاكماً آشورياً حتى أن آشور بانيبال منحه رتبة الرخ علاوة على ذلك وهي أعلى رتبة عسكرية في آشور.[34]

وانخرطت عيلام التي تعافت من الصدمة التي سببتها هزائم أومانيغاش الثاني والانقلاب من جديد في الحرب واجتاح الملك العيلامي تاماريت بابل الوسطى حيث قاد القوات الآشورية البابلي مردوك - شارو - اوتسور، وفي هذه المرة أيضاً أنقذت الخدمة السرية الآشورية الموقف حيث مهدت بجميع الوسائل لانقلاب جديد في عيلام حيث أثار إندابيغاش الذي لا ينتسب للبيت الملكي القديم الملطخة سمعته بالخيانات المستمرة والإخفاقات العسكرية والتواطؤ مع الآشوريين عصياناً ضد تاماريت وهرب ناماريت المغلوب من إندابيغاش مع أخوته وأقربائه وزمرة من القريبين منه بحراً وضلّت مراكبه في متاهات الأغوار الساحلية فانتقل تاماريت إلى قارب وبعد جولات طويلة وقع في الأسر وهو بالكاد حياً في يد بعل - إبنِ وأرسل أسيراً إلى نينوى، حيث مثّل مشهداً وصفه آشور بانيبال بالكلمات التالية «تاماريت وأخوته وذرية بيت أبيه مع خمسة وثمانين أميراً ومواليهم هربوا من إندابيغاش عراة وزحفوا على بطونهم وجاؤوا إلى نينوى تاماريت، قبّل قدمي جلالتي الملكية ومسح الأرض بلحيته وحل مكان دولاب مركبتي ووضع نفسه ليقوم بخدمة العبد لي، وبأمر الإله آشور والآلهة عشتار توسل إلى جلالتي لأتم به الحكم ولأقدم له المساعدة، ووقف أمامي ومجد عزة آلهتي القديرة التي أرسلتني للنجدة أنا آشور بانيبال الواسع القلب الذي لا يذكر الشر ويصفح عن الذنوب أبديت الرحمة لتاماريت وأنزلته بذاته مع عائلة بيت أبيه في قصري».

ومع ذلك عقد آشور بانيبال الصلح مع الملك العيلامي الجديد إندبيغاش وخرجت عيلام من الحرب ولكن في الوقت ذاته قطع بحسم محاولة الانتقاص من

سيادة وطنه ورفض تسليم الآشوريين نابو - بعل - شوماتي الذي لجأ إلى أرض عيلام، وصار شمش - شوم - أوكين والبابليون في عزلة تامة وجاء لمساعدته فقط العرب. وشقت مفرزة بدو الشيخ أبي ياتع طريقها إلى بابل عبر حلقة الحصار الآشوري ودافعت جنباً إلى جنب مع البابليين عن مدينتهم حتى النهاية.

واستولى الجيش الآشوري الذي يحاصر بابل وبارسيب وسيبار والكوت بقيادة مردوك أبلو إدين أولاً على الكوت مؤمناً بذلك معسكر حصاره من الهجوم من المؤخرة، وكانت بابل محصنة بقوة من قبل الآشوريين أنفسهم الذين بنوا سورها والآن يدور الجنود الآشوريون في مكانهم عاجزين عامين ونصف بكاملهما. وضيق مردوك - ابلو - إدين حلقة الحصار أقرب فأقرب على أمل أن الجوع في نهاية الأمر سيجبر البابليين على الاستسلام.[35]

وأخذت احتياطات المؤن عند العدو في بابل بالنفاد ففي وثائق العمل المصنفة في المدينة في شهر تشرين الثاني سنة ٦٥٠ ق.م نقرأ: «في هذه الأيام كان الجوع والفقر في البلاد حتى أن الأم لم تفتح الأبواب على بناتها» وبعد سنة في شهر كانون الأول من عام ٦٤٩ ق.م كتبت في الوثائق مثل هذه الملاحظة: «في هذه الأيام كانت المدينة محاصرة. وكان الناس في جوع وفقر وماتوا من قلة الغذاء» وبشهادة آشور بانيبال «بسبب الجوع أكل البابليون لحم أبنائهم وبناتهم ولاكوا جلود أحزمتهم.. وماتوا من الطاعون والفقر والجوع». أما العرب «الذين دخلوا بابل أكلوا بسبب الجوع والعوز لحوم بعضهم بعضاً».

وكما يحدث كثيراً في وقت الفاجعة كان في بابل سفلة ضاربوا بالمواد الغذائية وأثروا على حساب معاناة مواطنيهم فكان ممكناً أن تشتري منهم خلسة بشاقل واحد «٨.٤ غ» من الفضة ٣ سوتو «١٥ ليتراً» من الشعير وذلك بسعر أعلى بعشر مرات من المألوف «السعر العادي» واشتروا من الناس الميسورين قطع الأراضي والعبيد بالجملة، أما الفقراء فلكي ينجوا من الموت جوعاً باعوا أولادهم وأنفسهم أيضاً عبيداً[36]، وهؤلاء الرجال لم تقلقهم نتيجة الحصار فآشور بانيبال نفسه وعدهم بالعفو العام ودعاهم إلى الخيانة. وكتب مخاطباً إياهم «أما أنتم لماذا لا تقتلون ذاك الذي يجب أن يقتل، ولا تقبضون على أولئك الذين يجب القبض عليهم؟ هؤلاء الذين أتوا «يعني بذلك القوات الآشورية، بأعداد كبيرة لا تخافوا منهم. احرسوا المعابد فهو «يعني به شمش - شوم - أوكين» انحصر كلياً في المدينة وعساكري طوقتها»[37]. ادعو أمير آشور ولا تبقوا وديعين.

وكان في بابل عدد غير قليل من الجواسيس الذين كانوا يبلغون الآشوريين بالمعلومات العسكرية المهمة وكذلك بما يجري في المدينة.

وهكذا أبلغ الضابط الآشوري أداد - إبنِ من المعسكر حول بابل آشور بانيبال «هناك مواطن بابلي جاء إليه وقال «عندي كلام أقوله، دعني أوصله للقصر، وأنا الآن فقط أرسلته إلى سيدي الملك فليتفضل سيدي الملك ويسأله عن الكلام الذي معه لقد أرسلته إلى الملك سيدي في ٢٨ الجاري من مدينة زادي»[38].

وبعد الكوت استولى الآشوريون على سيبار وفي صيف ٦٤٨ ق.م سقطت بارسيب وانتحر مواطنوها الذين تورطوا في تنظيم الثورة[39] وصار الموقف في بابل قبيل خريف ٦٤٨ ق.م ميؤوساً منه والمدينة لم يعد عندها القوى للمقاومة، وسأل آشور بانيبال عدة مرات عراف الإله شمش هل سيهرب شمش - شوم - أوكين من بابل؟

أما شمش - شوم - أوكين في هذا الوقت كان يعذبه التفكير بالنهاية المقبلة ولم يشأ أن يقع في أسر آشور بانيبال فأحرق القصر الملكي وألقى نفسه في النار وأسوة به تبعته الملكة والأصدقاء المقربون.

وعندما لاحظ مردوك - أبلو - إدين الحريق قاد الآشوريين للاقتحام واندفع الجنود المتوحشون في بابل وشرعوا بالنهب والقتل ولم يوفروا حتى المعابد، على الرغم من أن آشور بانيبال منعهم من ذلك بشدة[40]، أما مفرزة الشيخ أبي - ياتع العربية التي شاركت البابليين كل متاعب الحصار اجترحت المستحيل مرة أخرى واخترق البدو المنهكين حلقة الآشوريين وخرجوا من بابل.

وبعد ذلك عبر أبي - ياتع عن طاعته لآشور بانيبال المعجب بتلك الرجولة فلم يعفُ عنه فقط بل عينه ملكاً على العرب وكان في حسبانه أن يستفيد منه في الخدمة الآشورية ولكنه أخطأ في الحساب، فأبو ياتع أنقذ محاربيه المحتلين وعاد إلى الوطن وسرعان ما أستأنف الحرب ضد آشور.

وأوقع بالبابليين تنكيلاً دموياً فقطعت ألسنتهم وراحت أجسادهم المقطعة طعاماً للكلاب والخنازير والغربان والنسور وطيور السماء والأسماك، وأعلن آشور بانيبال أن هذه المجزرة هي ولائم تأبين «طعام تذكاري - جنائزي» لجده المقتول سنحاريب.

وسيق قسم من البابليين إلى الأسر وأرسلوا إلى السامرة حيث أسكنوا مع أولاد وأحفاد الأسرى المساقين إلى هنا من بابل وسورية من قبل سرجون الثاني في سنة «٧٢١-٧١٠ ق.م» وأحفادهم جماعة غير كبيرة من السامريين يعيشون هناك حتى الآن ولكن آشور بانيبال لم يدمر بابل وعلاوة على ذلك لم يَطُل العقاب البابليين عن آخرتهم، فالإرهاب وجه بالأساس فقط لمناصري شمش - شوم - أوكين الفعالين. وهذا يعني للأرستقراطيين الناجين من مذبحة عام ٦٨٩ ق.م.

واعتبر آشور بانيبال بحق هؤلاء الأخيرين مسببي الثورة وهم دفعوا لقاء ذلك الإبادة عموماً، وبأمر من آشور بانيبال أودعت رفاة شمش - شوم - أوكين وزوجته في مدفن أعد خصيصاً لذلك.

وبعد سقوط بابل بقليل أستأنف آشور بانيبال الحرب مع عيلام التي برز فيها الرخ بعل - إبنِ وخلع الآشوريون انذابيغاش وأعادوا تاماريت الذي جاؤوا به من نينوى إلى العرش العيلامي.

ولكن عندما بدأ تاماريت بالمكائد من جديد جاءت نهايته فالعيلاميون أنفسهم طردوه واستسلم من جديد «ثانية» لآشور بانيبال.

وبدأت الفوضى في عيلام فانتهزها الآشوريون واستولوا على سوز عاصمة عيلام سنة ٦٤٦ ق.م ونهبوها عن آخرها.

وانتهت الحرب بالسحق الكامل لعيلام في عام ٦٤٥ ق.م وأسر الملوك اومانيغاش الثالث وبائي واومانالداش الثالث المتخاصمون فيما بينهم والذين قاوموا الآشوريين، وانتحر نابو - بعل - شوماتي الذي نجا من الأسر وملحوا رأسه وأرسلوه إلى نينوى، كما سحق الأشوريون انتفاضة العرب في عام ٦٤٤ ق.م.

وعلى هذا الشكل كانت نهاية انتفاضة شمش - شوم - أوكين. وبمناسبة النصر احتفل آشور بانيبال بنصره الفريد من نوعه، فإلى مركبته التي توجه بها إلى إما شماش معبد نينوى كان مقروناً بها بدل الخيل خمسة ملوك أسرى: العيلاميون تاماريت واومانيغاش الثالث وبائي واومانالداش الثالث وواتيع العربي. ومثل هذا الخروج ما صار لملك منتصر لا من قبل ولا من بعد آشور بانيبال، وقادوا في موكب النصر نابو - كاتا - تسابات النصير الأقرب لشمش - شوم - أوكين معلقاً في عنقه رأس نابو - بعل - شوماتي المملح.

وانحنى أمام آشور بانيبال الملوك والشعوب المجاورة وظهر أن ما من قوة قادرة أن تواجه الأفواج الآشورية الحديدية «القوية» ومع ذلك هذا فقط على ما يبدو.